الباب الخامس

الشيعة الاثنا عشرية

سنحاول فى هذا الباب أن نلقى الأضواء على أن الشيعة المتأخرة – الاثنى عشرية – منفصلة تمام الانفصال عن الشيعة الإمامية الجعفرية ، آخذة بعقائد لم يعرفها الإمام جعفر الصادق ، ولا تلامذته ، محتضنة المذهب المعتزلى – وقد كان جعفر الصادق أشد أعداء هذا المذهب ، اختلف مع شيخه واصل كما اختلف مع عمه زيد بن على ، لمتابعة زيد لواصل . وقد رأينا من قبل كيف أسرع جعفر الصادق إلى منزل زيد بن على حيث وفد واصل من الكوفة ، وهناك جادله جعفر الصادق أشد المجادلة ، وانبرى زيد بن على متهماً ابن أخيه بالحسد لواصل . عجباً أن تأخذ الشيعة بالمذهب المعتزلى ، ويصبح سمة لها وعنواناً حتى عصورنا الحديثة ، وعجباً أن يعلن الشيعى الاثنا عشرى المعاصر أنه جعفرى على ما فى عقيدته من خلاف بين واضح مع عقيدة الإمام جعفر الصادق . إن ما بقى من آثار جعفر الصادق فى الاثنى عشرية هو الفقه ، فما زال فقه جعفر الصادق هو قانون الاثنا عشرية . ولكن تختلف العقائد الدينية أشد الاختلاف بينه وبين الشيعة الاثنى عشرية .

واحتضنت الشيعة الاثناعشرية – فكرة العدد ، وهى فكرة غنوصية ، أخذتها من الكيسانية وأخذتها الكيسانية من قبل عن القبالا اليهودية ، كما احتضنت فكرة الرجعة ، وهى فكرة يهودية مختلطة بغنوصية واضحة . ولم يعرف جعفر الصادق فكرة العدد ، كما لم يعلن فكرة الرجعة . وهنا نتساءل : هل توضع الاثنا عشرية فى نسق الغلاة أم فى نسق المعتدلين من الشيعة ؟ . إن ابن خلدون – من قبل – اعتبر القائلين بالرجعة من الاثنى عشرية غلاة ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نضع الاثنى عشرية فى فرق الغلاة . إن ما يمكننا أن نقوله هو أنهم فرقة معتدلة من الشيعة ، اعتنقت بعض الآراء الغالية ، امتزجت فيها عقائد المعتزلة بعقائد الغنوص إلى قدر ما . واحتضنت فكرة العدد – الاثنى عشر – متابعة لأثر قرآنى عن عدد النقباء ، نقباء بنى إسرائيل ، ثم متابعة لأثر حديثى عن عدد نقباء رسول الله يوم بيعة العقبة . ولكن سرعان ما صبغ الغنوص هذه الأفكار القرآنية الحديثة بصبغات غنوصية ، لا تمت إلى الإسلام بأدنى صلة . وسنعرض الآن لحياة الأئمة (الستة) وأفكارهم ، وما تركوه من أثر فى تطور المذهب الشيعى .

الفصل الأول

الأئمة الستة

لا نجد فى حياة هؤلاء الأئمة الستة ، ولا فى نتاجهم ، ما نراه فى حياة السابقين من الأئمة ، فلم ينقل عنهم ما نقل عن الأولين من علم سايغ ، ونظرة متعددة واسعة للمجتمع الإسلامى الذى عاشوا فيه . ولم يرد عن واحد منهم فى الرواية العلمية الصحيحة – مذهب خاص ، يجعل الشيعة من بعده ، ينسبون المذهب إليه . لا جرم بعد ذلك أن تعلق الشيعة الاثنا عشرية باسم جعفر الصادق ، فحاولوا نسبة المذهب إليه ، ولم يحاولوا نسبته إلى واحد من هؤلاء الأئمة الستة المتأخرين . ولم يظهر فى هؤلاء من يقارن بجعفر الصادق أو أبيه الباقر . ويبدو أن جعفراً الصادق كان قد وضع كل آماله فى إسماعيل ، ابنه الأكبر ، ويبدو أن إسماعيل كان على علم وذكاء ولكن مات إسماعيل فى حياة أبيه ، وكان جعفر الصادق قد عهد إليه فى حياته ، فلما مات ظهرت فكرة « البداء » مرة أخرى منسوبة إلى جعفر . وانتقل جعفر إلى الرفيق الأعلى . وهنا بدأ الانقسام بين الشيعة الإمامية الفاطمية الحسينية – بل يبدو أن الانقسام نفسه قد حدث أيام جعفر . إذ أن أناساً من أتباع جعفر نفسه توقفوا فى موت إسماعيل ، وستنشأ عنهم فرقة الإسماعيلية ، تبدأ ساذجة بسيطة أول الأمر على يد المبارك الكوفى مولى جعفر الصادق ، ثم تنتهى فلسفية معقدة غالية . وتوقف فريق من الشيعة فى موت الإمام الصادق نفسه وهم أتباع عجلان بن ناووس أعلنوا « أن جعفر بن محمد حى لم يمت حتى يظهر ويتولى أمر الناس ، وأنه هو المهدى ونقلوا عنه أنه قال : « إن رأيتم رأسى قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه – فإنى أنا صاحبكم » وأنه قال : « إن جاءكم من يخبركم عنى أنه مرضنى وغسلنى وكفننى فلا تصدقوه فإنى صاحبكم – صاحب السيف » (١) وفرقة نقلت الإمامة إلى ابنه عبد الله الأفطح – وسموا بالأفطحية وكان أسن أولاد الصادق – ونقلوا أيضاً عن أبيه أنه قال « الإمامة فى أكبر أولاد الإمام » .

وأنه قال : « الإمام من يجلس مجلسى » وهو الذى جلس مجلسه والإمام لا يغسله ولا يصلى عليه ، ولا يأخذ خاتمه ولا يواريه إلا الإمام ، وهو الذى تولى ذلك كله » وتولى الشيعة عبد الله « غير نفر يسير عرفوا الحق فامتحنوا عبد الله بمسائل فى الحلال والحرام من الصلاة والزكاة وغير ذلك فلم يجدوا عنده علماً » فرجعوا عن إمامته وكان فيهم وجوه أصحاب جعفر الصادق مثل – هشام بن الحكم » وعبد الله

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٠ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٦٧ والشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن أبى يعفور ، وعمر بن يزيد بياع السابرى ، ومحمد بن النعمان أبى جعفر الأحول مؤمن الطاق ، وهشام بن سالم ، وعبد الله بن زرارة ، وجميل بن دراج ، وأبان بن تغلب وهؤلاء حقاً وكما يذكر النوبختى « وجوه الشيعة وأهل العلم منهم والنظر والفقه » ثبتوا على إمامة الابن الرابع لجعفر الصادق وهو الإمام موسى الكاظم المولود عام (١٢٨ هـ) ، ثم توفى عبد الله الأفطح ، وعاد معظم أتباعه إلى الائتمام بموسى الكاظم [١] .

وقد رويت الأساطير ، ووضعت الآثار عن الإمام السابع حتى يمكن الشيعة إقدامه مقابلاً لدعوة الإسماعيلية التى بدأت تنتشر فى ذلك الحين . فنقل عن الصادق أنه قال لبعض أصحابه : « عد الأيام » فعدها من الأحد حتى بلغت السبت . فقال له : كم عددت ؟ فقال سبعة . فقال جعفر : « سبت السبوت ، وشمس الدهور ونور الشهور ، من لا يلهو ولا يلعب ، وهو سابعكم قائمكم هذا » وأشار إلى موسى . وقال أيضاً « إنه شبيه بعيسى [٢] » غير أن السبب الحقيقى فى ولاية شيعة جعفر الصادق لموسى الكاظم هو أنه كان أكثر أولاد الإمام جعفر علماً ويبدو هذا تماماً من اجتماع وجوه الشيعة ومتكلميهم وبخاصة هشام بن سالم وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم عليه [٣] .

وقد استمرت إمامة موسى الكاظم مدة ربع قرن من الزمان (من عام ١٤٨ هـ إلى عام ١٨٣ هـ) وبإمامته دخلت الإمامة دورها السرى أيضاً ، ودورها العبادى ، انتهى دور الفقه ، فلا نسمع فقهاً خاصاً لموسى بن جعفر ، كما لا نسمع أن له دوراً كلامياً فى عقائد الإمامية . لقد تنقل موسى الكاظم من سجن إلى سجن ، وصب عليه المهدى والرشيد صنوفاً كبرى من العذاب ، احتملها الإمام بصبر عجيب حتى لقب بالكاظم . وهو فى الحقيقة أقرب إلى جده الأكبر على زين العابدين ، نقلت عنه أوراد الليل ، ودعاؤه المشهور فى جوف الليل ما زال حتى الآن يردده أهل مصر – وهم سنة – « عظم الذنب عندى ، فليحسن العفو من عندك ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة » ولم يرد عنه رواية ، وإن كان يقال إنه حدث ، ولكن الحديث كان ينسب إليه بدون ذكر اسمه . وآخر الأمر كتب الإمام موسى الكاظم صفحة من الشهادة لأهل البيت . فقد قتله الرشيد بالسم فى سجن بغداد ، وأصبح فيما بعد « باب الحوائج » لأهل العراق من الشيعة يلجأون إليه روحياً ، ويلتمسون منه الشفاعة فى اليوم الآخر .

وبالرغم من أن الرشيد أمر – بعد قتله – أن تعرض جثته على الجسر فى بغداد عارية ليعرف الناس أن إمام الرافضة قد مات ، . فقد توقف فى موته مجموعة من أتباعه ، وأعلنوا أنه لم يمت وسيخرج بعد

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٧٢ ، ٧٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٧ .

(٣) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٩ .

الغيبة مستندين على روايات لأبيه جعفر الصادق . أنه قال « هو القائم المهدى فإن يدهده رأسه من جبل . فلا تصدقوه. فإنه صاحبكم [١] » ولكن جمهرة الشيعة نقلت الإمامة إلى ابنه على المشهور بالرضا

ولقد ولد على الرضا عام ١٥٣ هـ ومات سنة ٢٠٣ هـ وكانت إمامته عشرين عاماً ، وفى السنوات الأخيرة منها استقدمه المأمون وجعله ولياً لعهده ، ثم قتله بالسم بعد ذلك . ولعلى الرضا قبر بطوس ، يعتبره الشيعة الإمامية من أكبر مزاراتهم . وقد دفن بجوار الرشيد ، قاتل أبيه . وقد توارى قبر الرشيد ، وبقى قبر الرضا حتى الآن .

وتتضح أهمية على الرضا فيما أضافه إليه الشيعة الاثنا عشرية وما حملوه إياه من عقائد وكتب ، فقد نسبوا إليه صحيفة تحوى مجموعة من الأحاديث ، كما أنهم نسبوا له رسالة فى أصول الدين وفروعه .

ويرى الدكتور أحمد صبحى فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية « أنه إذا كان فى عصر الصادق قد اكتمل التشيع مذهباً وعقيدة ، فإنه فى عصر الرضا قد اكتملت صياغة هذه العقائد المذهبية فى عبارات ونصوص تجد سبيلها السريع إلى الحفظ والتصديق وسرعة الإيمان حتى يجتمع عليها المعتنقون فينشأ على حفظها الصغار ويردد نصوصها الكبار فى جوهر المذهب ولب العقيدة .

ولكن ينبغى أن نلاحظ أن رجال المذهب من أمثال هشام بن الحكم وزرارة بن أعين ومؤمن الطاق كانوا صاغوا المذهب وفتقوا الكلام فيه ، بحيث أصبح فى صورته النهائية ، ولكن رسائل وصحف الأئمة مقدسة ، وهذا ما جعل لصحيفة الرضا ورسائله المنسوبة إليه كل هذه القيمة ثم انتقلت الإمامة بعد وفاته إلى ابنه محمد الجواد ، وهو مازال طفلاً فى السابع من عمره ، وقد عددت كتب الشيعة ما أظهره من معجزات وكرامات ، وهو فى طفولته ، وقد اختلفت الشيعة الاثنا عشرية فى علمه ، فالعلم عند الشيعة إنما يكون بالنقل والأخذ عن الإمام الذى سبقه ولكن على الرضا قد ذهب إلى بارئه وترك ابنه وهو ابن أربع سنين وأشهر ، ومن كان فى هذا السن ، فلا يستطيع تعلم « دقيق الدين وجليله » وهو ما يفترض فى الأئمة . أجابت فرقة من الإمامية بأن الله عز وجل علمه ذلك عند البلوغ « بضروب مما يدل على جهات علم الإمام مثل الإلهام والنكت فى القلب ، والنقر فى الأذن والرؤيا الصادقة فى النوم والملك المحدث له ووجوه رفع المنار والعمود والمصباح وعرض الأعمال » أى لجأ هذا الفريق من الشيعة الإمامية إلى المغيبات ، يلتمسون فيها وفى تصورها إقامة علم الإمام . بل يذهبون إلى أن الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد والتى لا يجوز دفعها ولا رد مثلها . قد صحت فى الإمام محمد الجواد [٢] .

---

(١) القمى : كتاب المقالات ص ٩٠ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ص ٨١ ؛ والشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٩٧ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ص ٨٩ .

وطائفة ثانية لم توافق على أن علم الإمام من جهة الإلهام والنكت والملك ، لأن الوحى منقطع بعد النبى ﷺ ، والإلهام إنما هو أن يلحقك عند الخاطر والفكر معرفة بشيء قد كانت تقدمت معرفتك به من الأمور النافعة ، فذكرته ، وذلك لا يعلم به الأحكام وشرائع الدين على كثرة اختلافها وعللها قبل أن يوقف بالسمع منها على شيء ، لأن أصح الناس فكراً ، وأوضحه خاطراً وعقلاً . وأحضره توفيقاً ، لو فكر وهو لا يسمع بأن الظهر أربع والمغرب ثلاث والغداة ركعتان ، ما استخرج ذلك بفكره ولا عرفه بنظره ولا استدل عليه بكمال عقله ولا أدرك ذلك بحضور توفيقه ، ولا لحقه علم ذلك من جهة التوفيق أبداً . ولا يعلم ذلك إلا بالتوقيف والتعليم ، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام والتوفيق . وهنا تنقطع الإمامة . ولكن هذه الطائفة من الإمامية ما تلبث أن تجد مخرجاً فتقول إن محمد الجواد هو قبل البلوغ إمام على معنى أن الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ ، فإذا بلغ علم من كتب أبيه وما ورثه من العلم فيها ويجده فيها من الأصول والفروع . وذهبت هذه الفرقة إلى إجازة القياس فى الأحكام للإمام خاصة على الأصول التى فى يديه ولكونه معصوماً من الخطأ والزلل ، فلا يخطئ فى القياس أبداً . وبهذا انتهت هذه الطائفة إلى احتضان فكرة القياس ، ونحن نعلم أن الشيعة الاثنى عشرية لا تجيزه إطلاقاً .

أما الفرقة الأخيرة التى اختلفت فى علمه ، فقد أعطت الإمام القداسة العظمى التى تشيع فى فكرة الإمامية عامة ، وهو أن الإمام إمام بالغ أو غير بالغ ، لأنه حجة الله على الأرض ، وقد يجوز أن يعلم وإن كان صبيًّا ، ويجوز عليه الإلهام والنكت والرؤيا والملك المحدث ، فكل ذلك يجوز عليه ، كما جاز على سلفه الماضين ، حجج الله فى الأرض ، وقد حدث هذا ليحيى بن زكريا من قبل ، وأتاه الله الحكم صبيًّا ، وعيسى بن مريم وغيرهما من الحجج [1] ومات محمد الجواد عام ٢١٩ هـ ولم يبلغ الخامسة والعشرين .

وتولى الإمام على الهادى الإمامة بعد وفاة أبيه وهو العاشر فى دورة الأئمة ، وكانت سنه حين توفى الإمام محمد الجواد ثمانية أعوام ، وقد عاصر الإمام على الهادى حكم المتوكل . وكان المتوكل ناصبيًّا ، يكره على بن أبى طالب وأولاده أشد الكراهية وقد هدم قبر الحسين وحاول إخفاءه ، وقد اتخذ مع الإمام على الهادى موقف أبى جعفر المنصور مع الإمام جعفر الصادق ، فكان يستدعيه من المدينة لسؤاله وإحراجه . وحضر الإمام مراراً . ويذكر المسعودى أنه سعى به مرة عند المتوكل ، وقيل له : إن فى منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، فأرسل إليه ليلاً جماعة من حرامه الأتراك وهجموا عليه فى

(١) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .

منزله على غفلة ممن فى داره ، فوجدوه فى بيت وحده مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعره ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة من الصوف ، متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن فى الوعد والوعيد . فأخذوه كما هو إلى المتوكل فى جوف الليل ، وأخبروه بخبره وكان المتوكل فى مجلس شرابه والكأس بين يديه ، فقدم إليه المتوكل الكأس الذى بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمى ودمى قط ، فاعفنى منه ، فأعفاه المتوكل ، ثم أمره بإنشاد شعر .

فقال الإمام :

باتوا على قلل الجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفر يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة ... وساكنوها إلى الأحداث قد رحلوا

وحين سمعها المتوكل ، وضع الكأس وبكى [1] .

ولكن المتوكل ما يلبث أن يأمر يحيى بن هرثمة بإشخاص الإمام من المدينة . ويضج أهل المدينة ويعجوا ، ويؤكد لهم يحيى بن هرثمة أنه لم يؤمر فيه بمكروه . ويستجوبه المتوكل ، ولا يجد عليه حرجاً ، ثم يعيده إلى المدينة .

وقد نسبت الشيعة إلى الإمام على الهادى المعجزات ، فالسحاب يظلله ، والمطر طوع يديه ، إلى آخر تلك المعجزات التى تعود الشيعة نسبتها إلى الأئمة . كما أنهم أسندوا إليه أيضاً حديث «الإيمان ما وقرته القلوب وصدقته الأعمال ، والإسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة» وينقل المسعودى أنه كان لديه صحيفة بخط على بن أبى طالب بإملاء رسول الله يتوارثها الأئمة كابراً عن كابر . كما يذكر الشيعة أيضاً خبره مع زينب الكذابة وهى التى ادعت أنها ابنة الحسين عليه السلام وإن الله أطال عمرها إلى ذلك الوقت . وقد أرسل المتوكل للإمام على لكى يحاجها . وقد فعل ، وتحداها أن تنزل بركة السباع فأبت . فنزل هو فتذللت له السباع ورجعت زينب الكذابة عن دعواها [2] . ومات الإمام

---

(١) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب . ج ٢ ص ٧٤٣ - ٢٤٥ .

على الهادى فى خلافة المعتز سنة أربع وخمسين ومائتين .

وخلفه فى الإمامة الإمام الحادى عشر الحسن العسكرى وقد زوجه أبوه من جارية رومية هى مليكة بنت يشوع بن قيصر ملك الروم ، وقد ذكرت كتب الشيعة الإمامية أن أمها من نسل شمعون – وصى المسيح وهنا أيضاً صورة أخرى لزواج الحسين بن على بابنة كسرى كما ذكرت كتب الإمامية أيضاً قصة اتصالها بالإمام الحسن العسكرى فى أسلوب روائى جميل ، والغاية من هذا كله عند الشيعة الاثنى عشرية هى إعداد الإنسانية جميعاً لتلقى نهاية الدور التام – من الأئمة فى قصة من أروع القصص الإنسانية ، والمزج بين مهدى الإسلام وبين قصة «المهدى» المسيحية أو نزول عيسى فى آخر الزمان مؤتماً بمهدى الإسلام . وقد نسبت المعجزات إلى الحسن العسكرى ، وبالرغم مما كان يحيا من قسوة حتى سمه المعتمد العباسى عام ٢٦٠ هـ وهو ابن تسع وعشرين سنة . وقبل وفاته بخمسة أعوام فى يوم الجمعة منتصف شعبان عام ٢٦٠ هـ – ومن جاريته التى سميت باسم نرجس خاتون أو ريحانة أو صقيل أو سوسن أو خمط على اختلاف ولد الإمام الثانى عشر سنة ٢٥٥ م أو ٢٥٦ – مهدى الزمام وحجة الله على البشر . بشر به القرآن «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» وبشر به النبى «اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى» اسمه محمد وكنيته أبو القاسم «وألقابه المهدى والحجة المنتظر ، وصاحب الزمان» وصاحب الدار والقسيم والمهدى والهادى والصاحب «إنى نبى وعلى وصى . ألا وإن خاتم الأئمة منا القائم المهدى صلوات الله عليه ، ألا إنه الظاهر على الدين ، ألا إنه المنتقم من الظالمين ، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها» .

أما ولادته ، فقد نقل الشيعة إلينا ما فيها من خوارق تتجاوز خوارق عيسى المعروفة ، فقد تكلم فى المهد كما تكلم عيسى من قبل وحمله أبوه فكلمه ، ودعا هو الله أن ينجز وعده ثم دعا طيراً من السماء ، وكان هذا الطير روح القدس ، فحمله إلى أعلى عليين . وبكت أمه ، وهو يودعها إلى القدس الأعظم . وكان يعود بين الفينة والفينة .

ثم مات أبوه وكان عمر القائم خمس سنوات وبقى القائم قليلاً ، ثم غاب الغيبة الصغرى وقد امتدت إحدى وسبعين عاماً ، وقد ظهر فى هذه الآونة لطائفة من كاملى الشيعة . ثم بدأت الغيبة الكبرى ، وسيعود فى آخر الزمن .

هكذا نشأت عقيدة الغيبة ، وعقيدة الرجعة فى صورتها النهائية عند غلاة الشيعة الإمامة أى الاثنى عشرية [1] هى حجب الله للإمام واختفاؤه عن أعين البشر ، وهو حى يلهم العبادة والتسبيح ، ويطلع على خفايا البشر ، والثانية : أن الله سيعيده ، فيحقق للناس كمالاً ، من ناحية تحققه بالصفات التى

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٥٣١ .

تظهر عن إمام العصر ، ويحارب الشيطان حتى يقضى عليه . وهكذا نرى أثر الكيسانية النافذ فى عقائد الاثنى عشرية . أو بمعنى آخر أن الأسطورة التى نشرها الكيسانية عن غيبة محمد بن الحنفية فى جبل رضوى ، وأنه حى يلهم العبادة والتسبيح تعود فى صورة غنوصية أو أشد فى عقائد الاثنى عشرية .

ويعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن المهدى اختفى فى سامرا – بالحلة ، ولذلك يذهبون كل ليلة إلى باب السرداب فى مسجد سامرا . وقد أعدوا مركباً وعليهم السلاح ، ويقرءونه السلام ، ويدعونه للخروج «باسم الله ، يا صاحب الزمان ، اخرج . قد ظهر الفساد وكبر الظلم وقد آن أوان خروجك» ويسلمون عليه منادين «خليفة الله ، ووصى الأوصياء الماضين ، وبغية الله من الصفوة المنتخبين ، وباب الله الذى لا يؤتى إلا منه ، ونور الله الذى لا يطفأ» .

انتهى دور الأئمة بالتوقف فى موت الإمام الثانى عشر ، وبدأ دور الوكلاء الأربعة . وقد عين الإمام الحسن العسكرى أول هؤلاء الوكلاء – وهو عثمان بن سعيد ثم عين عثمان ابنه محمداً . ثم عين محمد الحسن بن روح . وكان الوكيل الأخير هو على السمرى . ولهؤلاء الوكلاء عند الشيعة الاثنى عشرية ما للأئمة من الاحترام والتقديس . وقد سئل الوكيل الأخير أن يعين وكيلاً بعده – وهو يجود بنفسه – فأبى وقال «لله أمر هو بالغه» .

وقد كان هؤلاء الوكلاء الأربعة من خواص الإمام العسكرى ، وكانوا هم الوسطاء بينه وبين شيعته ، يلجأ إليهم فى أصول الدين وفى الأحكام الفقهية . وقد شهد الإمام العسكرى بعد التهم وجعلهم أمناء على شئون الإمام المهدى . وبموت الرابع ، بدأت غيبة الإمام الكبرى .

غاب الإمام ، ولكن لم ينقطع سلطانه على الناس ، إنه حى فى خلود دائم حتى يوم رجعته ، إنه ينظر الناس ويراهم ، وهم لا ينظرونه ولا يرونه . ولكن قد يراه خواص الناس ، إنه هو «المتصرف فى شئون شيعته ، القائم على أمورهم ، المدبر لوجودهم» .

عجباً أن تنتهى قصة الأئمة الاثنى عشرية إلى هذا الحد الأسطورى . وعجباً أن تثير عقائد راسخة متمكنة فى عقائد مجموعة من البشر ، بل أن ينبرى لها جماعة كبرى من متكلمى الإسلام يدافعون عنها وينافحون . وسنحاول أن نتتبع فى الفصل المقبل عقائد الشيعة الاثنى عشرية ، أو بمعنى أدق تطور هذه العقائد حتى تصل إلى صورتها الكاملة ، كما هى بين أيدينا اليوم .

الفصل الثاني

عقائد الشيعة الاثنى عشرية

لم تكن هناك عقائد شيعية واحدة ، بل كان لكل عصر من عصور الأئمة تراث أضيف إلى تراث السابقين ، وكان الأئمة غير متعاصرين ، فكان لكل عصر من عصورهم عقائده وفلسفته واتجاهاته . فامتاز عصر كل إمام بالاتجاهات العلمية السائدة فى عصره ، وامتاز عصر الإمام على زين العابدين بالحديث ، وكان الرجل من خيار التابعين . وامتاز الباقر بالحديث أيضاً ، ولكنه كان فى معترك الفرق ، فوقف تجاهها موقف المحدث ، ينهى عن الكلام والأهواء والخصومات فى الدين ، ويكاد يتشابه مع الإمام مالك بن أنس . ويضخم الفقه والكلام فى عصر الصادق ، ويكون هو مرآة لكل هذا ، فيرسى أسس الفقه الشيعى الإمامى ، ويكاد يتشابه مع الإمام أبى حنيفة ، فأبو حنيفة إمام الفقه ، وخاض فى الكلام ونسبت إليه رسائل ؛ كما نسب إلى جعفر رسائل ، ولم يترك جعفر الصادق كتاباً كاملاً مدوناً ، وكذلك أبو حنيفة ، وكما أثار أبو حنيفة الأبحاث المتعددة فى فقه السنة ، فعل جعفر الصادق هذا فى فقه الشيعة . وكما اختلف الناس فى أبى حنيفة فقالوا إنه قدرى ومرجئ وجبرى ومن القائلين بخلق القرآن ، كذلك اختلفوا فى جعفر الصادق ، فقد نسبوا إليه كل الفرق ، وأضافوا إليه كل الاتجاهات ، وأنطقوه بكل المتناقضات . وبعد جعفر الصادق ، قام علماء المذهب ، كهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهما من علماء الإمامية بالعمل الأكبر فى صوغ مذاهبها . أما الأئمة الستة الآخرون فلم يكن لهم أى دور إيجابى هام فى تصوير العقيدة الشيعية ووضعها فى صورتها النهائية .

والملاحظة الثانية : أن المذهب فى أيدينا الآن غيره فى عهد الأئمة الأولين ولم يقبل الأولون – أئمة وأتباعاً – المذهب المعتزلى ، بل إن محمداً الباقر كان عدوًّا صريحاً للمعتزلة ، وكان من رجال الحديث المتبعين للأثر ، ونرى جعفراً الصادق أقرب إلى أهل السنة والجماعة فى آرائه الكلامية مع اعتزال غير واضح ، بل تورد المصادر حجاجه العنيف مع عمرو بن عبيد من ناحية وواصل بن عطاء من ناحية . إن من « الواضح أن جعفراً الصادق كره الرجلين أشد الكراهية » وكره مذهبها ، وكره أن يتابع عمه زيد واصلاً فى كثير من أصوله الكلامية . ثم يكاد التجسيم ينبثق من رجاله الأقربين مثل هشام بن سالم الجواليقى وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم . فكيف اعتنق المتأخرون من الشيعة المذهب المعتزلى واعتبروا أصول الدين أربعة : التوحيد والعدل والنبوة والإمامة ، ويترنم شاعرهم المتأخر :

سطران قد خطا بلا كاتب العدل والتوحيد فى جانب
وحب آل البيت فى جانب

ونحن لا نجد أدنى فرق بين أى معتزلى وابن المطهر الحلى عالم الشيعة المتأخر الكبير حين يكتب عن عقائد الاثنى عشرية الكلامية فيقول «إن الله عدل حكيم ، لا يفعل قبيحاً ، ولا يخل بواجب ، وأن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح وحكمة ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف رحيم بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع «وأنه تعالى كلفهم تخييراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ، ولا المعاصى ، وإلا لم يبق وثق بأقوالهم وأفعالهم ، فتنتفى فائدة البعثة»[1] هذا كلام معتزلى واضح ، تبناه مجتهدو الشيعة المتأخرين حين وجدت المعتزلة ملجأ فى الشيعة ، بعد أن أنزل علماء الأشاعرة الضربات الساحقة بهم ، وليس فى قدماء الشيعة شىء من هذا . بل إن الإمام جعفراً الصادق يقول فى الإرادة «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً ، وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا ، عما أراده منا» ثم إن رأيه فى القدر هو «أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض» وكان يقول فى الدعاء «اللهم لك الحمد ، إن أطعتك ، ولك الحجة إن عصيتك ، لا صنع لى ولا لغيرى فى إحسان ولا حجة لى ، ولا لغيرى فى إساءة»[2] وهذا رأى يكاد يقترب من الأشاعرة ، فلم يكن جعفر الصادق إذن معتزليًا مهما حاول الشيعة المتأخرون نسبة العدل والتوحيد إليه . وقد تنبه الشهرستانى إلى هذا ، فقال إن الشيعة بعد أن افترقوا وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروجه على أصحابه ، ونسبه إليه وربطه به ، والسيد برىء من ذلك ومن الاعتزال ومن القدر» ، وفى فقرة أخرى . . «وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه ، وتبرأ منه ولعنهم ، وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم ، من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه»[3] . وكتاب الانتصار للخياط المعتزلى وثيقة نادرة تثبت تمام الإثبات ما بين المعتزلة والشيعة الإمامية – وبخاصة هشام بن الحكم وهو تلميذ جعفر وصديقه وصفيه – من اختلافات كبرى فى دقيق الكلام ورقيقه .

والإمامية تؤمن باثنى عشر إماماً ، فهل ذكر الأولون من الأئمة – اثنى عشر إماماً ؟ وهل أعلن الإمام على بن أبى طالب استخلاف اثنى عشر إماماً ؟ وهل نادى بهذا على زين العابدين ، أو محمد الباقر أو جعفر الصادق ؟ من المحتمل أن يكون أبو هشام بن محمد بن الحنفية ، قد ذكر شيئاً عن اثنى

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .
(٢) الشهرستانى : الفرق ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٣) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٧٢

عشر نقيباً لمحمد بن على العباسى ولكن الشيعة حملوا الأئمة السابقين آثاراً تعلن فكرة العدد الاثنى عشرى كما حملوهم فكرة الإمام الغائب ، غيبته وخلوده ورجعته ، مع أنهم لم يذكروها أبداً .

إن إقامة المذهب الإمامى الاثنى عشرى فى صورته الكاملة إنما كان على يد المجتهدين المتأخرين من علماء المذهب ، الذين قاموا بأخذ مصادره الأولى ، وأخذوا يصوغونها صياغة جديدة ، ويضيفون إليها عناصر متعددة من هنا وهناك ، حتى اكتمل فى أيديهم .

وسنحاول أن نعطى صورة لآراء الاثنى عشرية فى إيجاز .

صاغ مجتهدو الشيعة الاثنى عشرية أصولهم فى أربع : (١) التوحيد (٢) العدل (٣) النبوة (٤) الإمامة .

وقد فصل عالم الشيعة الكبير ابن المطهر الحلى عقائد الإمامية الاثنى عشرية فى الفقرة الرائعة الآتية : « ذهبت الإمامية إلى أن الله عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب ، وإن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع ، وأنه تعالى كلفهم تخييراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ولا المعاصى ، وإلا لم يبق وثوق بأموالهم وأفعالهم ، فتنتفى فائدة البعثة ، ثم أردف الرسالة بعد موت الرسول بالإمامة فنصب أولياء معصومين منصوبين ليأمن الناس من غلطهم وسهوهم وخطئهم ، فينقادون إلى أوامرهم لئلاً يخل الله العالم من لطفه ورحمته ، وأنه لما بعث الله محمداً ﷺ ، قام بنقل الرسالة ، ونص على أن الخليفة بعده علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم من بعده ولده الحسن الزكى ، ثم ولده الحسين الشهيد ، ثم على علىّ بن الحسن زين العابدين ، ثم على محمد بن على الباقر ثم على جعفر بن محمد الصادق ، ثم على موسى بن جعفر الكاظم ثم على علىّ بن موسى الرضا ، ثم على محمد بن علىّ الجواد ، ثم على علىّ بن محمد الهادى ، ثم على الحسن بن علىّ العسكرى ، ثم على الخلف الحجة محمد بن الحسن المهدى عليهم الصلاة والسلام وأن النبى ﷺ لم يمت إلا عن وصية بالإمامة »[1] .

هذا التعبير الدقيق عن أصول الشيعة الاثنى عشرية يجعل بينه وبين الأئمة الأوائل هوة من أعمق الهوات فى مسألتين من أهم المسائل : وهما التوحيد والعدل ففى هذين الأصلين لجأ الشيعة إلى المعتزلة ، واعتنقوا المذهب المعتزلى كاملاً ، أو بمعنى آخر لجأ المعتزلة إلى الشيعة ، بعد أن نزلت بهم ضربات أهل السنة والجماعة ، واختلطت عقائدهم بعقائد الاثنى عشرية ، كما اختلطت من قبل بعقائد الزيدية .

وهنا نتساءل ما هى العلة فى احتضان الشيعة للمذهب المعتزلى فى التوحيد والعدل ؟ نحن نعلم أن

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .

المذهب المعتزلى عاش فى رحاب العباسيين ، وكان عقيدة الدولة العباسية إجمالاً ، اللهم إلا المتوكل ، كما كان المذهب الجبرى عقيدة الدولة الأموية من قبل اللهم إلا يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص . أما أئمة أهل البيت الكبار وبالأخص محمد الباقر وجعفر الصادق فقد كانوا من رواد المذهب السنى ، إن جعفراً الصادق بالذات كان أقرب فى عقائده الكلامية إلى عقيدة الأشاعرة ، وهى العقيدة التى تكونت بعده على هدى من عقائد السلف . وكان أعظم رجاله الكلاميين كما سنرى بعد – هشام ابن الحكم – مجسماً أو أقرب إلى التجسيم . وسنرى أيضاً كيف هاجم الخياط المعتزلى هشاماً فى كتابه « الانتصار » .

إن الإجابة على هذا التساؤل تنقلنا إلى الترجيحات الآتية : الترجيح الأول : بعد العهد بين المجتهدين الجدد والأئمة ، ولم يكن هناك إمام ذوسلطة دينية يوقف « المجتهدين » فى صوغ آرائهم . فنسى هؤلاء الاتجاه السلفى الواضح لدى الباقر ، كما نسوا الموقف الوسط لجعفر الصادق . وأرادوا أن يتلمسوا أو أن يبنوا قلعة محصنة ضد الأشاعرة – حين ازدهر هؤلاء وقضوا على المذهب المعتزلى – فأرادوا الاستعانة ببقايا هذا المذهب لإيقاف المذهب الأشعرى الذى كان قد تكامل إبان هذا الوقت على يد مشيخة الأشاعرة العظماء . نسى المجتهدون أو تناسوا آراء الباقر وآراء الصادق الكلامية كما مروا سراعاً بهشام بن الحكم وكان عدو المعتزلة ، وند أبى الهذيل العلاف ، كانت غايتهم فقط مخالفة المذهب الأشعرى بحجج أعدائه القدماء . الترجيح الثانى : إن معتزلة بغداد – كانوا أقرب إلى التشيع ووضعوا نظرية فى الإمامة هى مزيج من الإمامية الشيعية العلوية ومن الإمامية الشيعية العباسية ، فهل كانت الاثنى عشرية امتداداً لمعتزلة بغداد ؟ . والترجيح الآخر هو دخول كثير من الزيود فى الإمامية وعودتهم إليها ، فحملوا معهم كثيراً من عناصر مذهبهم ، المعتزلى ، ومزجوه بمذهب الاثنى عشرية ، وكانت الزيدية متكاملة المذهب الكلامى . وينبغى أن نحدد العقائد الشيعية الإمامية المعتدلة ونرسم تاريخها على الشكل الآتى : عقائد سلفية قديمة على يد عالم الإسلام الكبير على بن أبى طالب وحفيديه على زين العابدين ومحمد الباقر ، عقائد كلامية عقلية تتوسط المذاهب وهى أقرب إلى الأشاعرة على يد جعفر الصادق ، وعقائد مجسمة على يد تلامذة جعفر هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقى ومؤمن الطاق ، وانتشر التجسيم ، وظهر كتاب الانتصار المعتزلى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى يؤرخ لنا تلك المرحلة الشيعية المجسمة ، ثم ظهر كتاب الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣ هـ) أوائل المقالات يمثل لنا المرحلة المعتزلية فى عقائد الشيعة . أو يمثل لنا تكون العقائد الشيعية الاثنى عشرية ، وتابع الشيخ المفيد مشيخة من أعلام المذهب الاثنى عشرى كالشريف المرتضى والرضى والطوسى ثم ابن المطهر الحلى فى عصر متأخر . ولا يقدح فى مذهب من المذاهب تطوره العقائدى ، إن هذا التطور إنما

هو دليل على حيوية المذهب ومرونته وقبوله للتطور العقلى المستمر . لا جرم بعد ذلك كان ينسب الشيعة المجتهدون إلى الصادق أنه قال : « الله ليس كمثله شيء ، ليس بجسم ولا صورة ولا تقع عليه الرؤية فى الدنيا والآخرة ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وأنه لا جسم ولا صورة وهو جسم الأجسام ومصور الصور لم يتجزأ ولم يتناه ولم يتزايد ولا يتناقص ومن زعم أن الله فى شيء أو على شيء أو يحول من شيء إلى شيء ، أو يخلو منه شيء ، لا يشتغل به شيء ، فقد وصفه بصفة المخلوقين ، والله خلق كل شيء ، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس ولا يخلو منه مكان . ولا يشتغل به مكان ، قريب فى بعده . بعيد فى قربه . ومن زعم أن الله تعالى من شيء ، فقد جعله محدثاً . ومن زعم أنه فى شيء ، فقد جعله محصوراً ، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً » .

هذا النص الذى نقله لنا الكافى يدل دلالة واضحة على مزج أقوال جعفر الصادق بكلام معتزلى أو بمعنى أدق بكلام اثنى عشرى متأخر . كانت غايته أولاً وبالذات تدعيم الأصل المعتزلى القديم الذى اعتنقه متأخرو الاثنى عشرية إنكار رؤية الله فى الدنيا وفى الآخرة ؛ وهكذا فعل المجتهدون الموسومون بمجتهدى المذهب الاثنى عشرى فى نسبة أصول العدل والوعد والوعيد إلى الأئمة .

فإذا انتقلنا إلى الأصل الثالث عند الشيعة الاثنى عشرية وهو النبوة . فلا نجد ثمة اختلافاً كبيراً بينهم وبين أهل السنة والجماعة ، فالفريقان يحتمان سلسلة النبوة بمحمد ﷺ ، ولكن يختلف الفريقان اختلافاً جزئيًا فى مسألة العصمة ، فبينما يذهب الشيعة الإمامية إلى أن الأنبياء معصومون عن الكبائر والصغائر قبل النبوة ، وبعدها ، يذهب أهل السنة فى الجملة ؛ إلى اعتبار الأنبياء معصومين عن الكبائر قبل النبوة وبعدها ، ولكن غير معصومين عن الصغائر سهواً فى بعض الأحيان . ولكن لم يكن فى هذا خلاف جوهرى .

وإنما يبدأ الخلاف بين الشيعة الاثنى عشرية وبين أهل السنة فى مفهوم الإمامة اختلافاً كبيراً ، اتفق أهل السنة والاثنى عشرية والإسماعيلية فى وجوب نصب الإمام . ولم يشذ عن هذا سوى بعض المعتزلة – فرقة الأصم – التى ذهبت إلى أن الإمامة غير واجبة لا سمعاً ولا عقلاً ، وكذلك النجدات العاذرية من الخوارج فقد ذهبت إلى نفس الرأى ، وقررت أن الإمامة إنما تعود إلى مصالح العباد ، لا إلى لطف من الله يستلزم الأصلح والأكمل .

ولكن هذه آراء شاذة لا تتوقف عندها . فالخلاف الحقيقى إنما كان بين الشيعة وأهل السنة الأشاعرة ، يذهب الأشاعرة إلى أن الإمامة واجبة سمعاً ، بينما يذهب الشيعة إلى أن الإمامة واجبة سمعاً وعقلاً ، والإمامة هى جوهر العقيدة الشيعية عامة – اثنى عشرية وإسماعيلية – والشيعة هى التى خرجت فى فكرتها عن الإمامة عن إجماع الجمهور . والإيمان عند الشيعة إنما يتكون من الاعتراف

بتوحيد الله ونبوة محمد ﷺ وموالاة إمام العصر. فالإيمان بإمام العصر هى قاعدة إمامية تتصل بجوهر العقيدة وتتصل بها أوثق الاتصال. وهذا ما دعا الأشاعرة فيما بعد إلى مناقشة الشيعة فى فكرتهم عن الإمامة فى باب العقائد مع أن الإمامة مشكلة عملية، واعتبار الشيعة الاثنى عشرية «الإمامة» جزءاً من العقيدة أثار ضجة كبرى فى العالم الإسلامى. ونفر علماء أهل السنة يحاربونها ويجادلونها بعنف بالغ، وقد راعهم أن يضاف إلى العقيدة التقليدية أصل لم يرد إطلاقاً من قبل، بل لقد فتش المحدثون فى آثار السلف من أهل البيت فلم يجدوا له مكاناً. إنه من المؤكد أن الإمام على بن أبى طالب كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وكذلك أبناؤه وأحفاده من بعده، ولكن ليس فى آثار هؤلاء ما يجعل الإمامة جزءاً من العقيدة يسوى بينها وبين شهادة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ولو كانت الإمامة جزءاً من العقيدة، ومتممة لشهادة التوحيد، فهل كان على بن أبى طالب يقبل الحياة بعقيدة ناقصة. قد يقول الشيعة إنه اتخذ التقية فى عهد الشيخين. وهذا مرفوض قطعاً. ما كان فارس الإسلام العظيم على بن أبى طالب يأبى الذل، ويتقى فى العقيدة. لقد اتقى فى حقوقه، ولكنه لم يتق أبداً فى حقوق الله.

ولكن المتأخرين من الاثنى عشرية ما لبثوا أن وضعوا الأدلة على الإمامة بأنها واجبة وجزء من العقيدة – ودليلهم الأول أن الإمامة لطف من الله وهذا اتجاه معتزلى واضح ودليلهم الثانى حفظ الشريعة. وهذا اتجاه عملى، ثم تتابعت الأدلة على ذلك.

ولا يكفى الشيعى مجرد الإيمان بالإمام، بل لابد من موالاته، والولاية بمعنى الانتماء للأئمة. وهذا ركن شيعى هام، ويستتبع الولاية البراءة من الأعداء، ولذلك كان لعن أعداء على وغاصبيه، وبخاصة الشيخين فريضة افترضها الشيعة الاثنى عشرية على أنفسهم. ومن الإنصاف للشيعة أن نقول: إن لعن أعداء على وغاصبيه كان رد فعل لما قام به الأمويون من سب على وآل بيته من على منابر المسلمين. وكم كان جزع المسلمين من الأوائل من هذا السب. وقد انتهى الأمويون وانتهى سب على وأولاده، بل إن أهل السنة من قبل والآن يتعبدون على تراث أهل البيت. ففيم لعن الشيخان إذن؟.

والإمام، هو مصدر التشريع بعد القرآن والسنة المؤكدة عن طريق أهل البيت، فلا يقبل الشيعة إسناداً إلا عن طريقهم. فالإمام وارث العلم النبوى، وإنما يعلو على البشر باتصاله الدائم بالعلم الإلهى، ولم يصل إلى هذا عن اكتساب واعتمال دليل، بل ينقدح العلم فى نفسه انقداحاً، إنه منه وفى طبيعته ومادته انتقل إليه العلم الغيبى بعد تسلسل طويل فى أرواح الروحانيين من الملائكة والأنبياء. فى البدء كانت هناك مادة نورانية، انتقلت من نبى إلى نبى حتى وصلت محمداً ومنه إلى على وفاطمة.

واجتمع النور فى الأئمة الفاطميين ، فمادة أرواحهم من هذا النور الخلاب الذى بهر المخلصين والمختبين من الشيعة ، فآمنوا به إيماناً عجيباً . ولقد آمن من قبل الملائكة حين انتقل هذا النور إلى آدم ، فسجد الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر . وقد أمر الله آدم أن ينظر إلى قمة العرش الإلهى ، حيث شاهد تلك الأجسام النورانية المقدسة منعكسة فى هذا القدس العظيم ، كما تنعكس صورة الوجه فى مرآة صافية . فانعكاسات هذه الأجسام المقدسة محتواة فى العرش الإلهى ، ومنها إمام العصر ، يؤمن به خلص المؤمنين ، بينما يكفر به أتباع الشياطين . فالعلم الغيبى إذن للأئمة ، هو أشبه بالوحى ، بل إن علوم الأئمة أشمل وأعظم من علوم الأنبياء باستثناء النبى محمد ﷺ ويورد الاثنى عشرية قولاً ينسبونه إلى الإمام جعفر الصادق هو قول الله تعالى : «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا – ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» قال الصادق : منذ نزل ذلك الروح على النبى ما صعد إلى السماء ، وهو فينا» ويحدد الرضا اتصال الإمام بالوحى «أنه يسمع الكلام ولا يرى الشخص «أى يتلقى الوحى ولا يرى الملك» . والإمام فى هذا يختلف عن النبى الذى يتلقى الوحى ويرى الملك .

وأطلق الشيعة أيضاً على لسان جعفر الصادق «ورب الكعبة لوكنت بين موسى والخضر ، لأخبرتهما أنى أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس فى أيديهما ، لأن موسى والخضر أعطيا علم ماكان ، ولم يعطيا علم ما يكون وماكان حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وارثه [1] ولكن جعفراً الصادق كما يروى الكلينى نفسه ، يجيب – حين سئل عن علم الأئمة – أنهم كصاحب موسى وذى القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين ، إذ لهم ما للنبى ، ولكن ليسوا أنبياء ، فلا يتنزل عليهم الوحى ولا يحل لهم ما يحل للنبى من النساء فأما ما خلا ذلك ، فهم بمنزلة رسول الله ، إذ لم يعلم الله نبيه علماً ، إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين ، فهو شريكه فى العلم «وهذا الأصل متصل بولاية الأئمة ، إذكيف يفرض الله طاعة الإمام على العباد ، ثم يحجب عنه أمر السماء ، فيتصرف فى العباد على غير يقين . فالإمام مرجع الناس جميعاً . أو بمعنى أدق الإمام هو الولى الكامل .

والإمامة تسير فى انتقالها طبقاً لناموس ثابت ، لا تختلف فيه ، قدر الله فى علمه القديم ، فهل تنتقل من إمام إلى إمام – كما خط الله فى اللوح ، لا تغيير ولا تبديل فى علمه ، وهكذا كانت الإمامة نصًّا لا تعييناً ، ولا تترك لنزعات البشر وأهوائهم وإلا فسد أمر الشريعة ، إذ أن حفظها موكول بالإمام المعصوم يقول الصادق : «إن الله تعالى أوضح بأئمة الهدى من أهل بيتنا عن دينه ، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ، فمن عرف واجب حق إمامه ، وجد طعم حلاوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأن الله نصب الإمام علماً لخلقه ، وجعله حجة على أهل مواده

(١) الكلينى : الكافى ص ٥٦ – ٦٠ .

وعالمه» بل يذهب الشيعة الاثنى عشرية إلى منح الإمام سلطة كونية «نحن أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة . ولولا من فى الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تخل منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله ، ولولا ذلك لم يعبد الله [١] . وستنتقل هذه العقيدة إلى الصوفية ، وسيعلن هؤلاء أن الأرض خلقت لأجل محمد وآله .

بل إن الانتفاع أيضاً حادث بالإمام الحجة الغالب . يقول الشيعة على لسان الإمام على زين العابدين : «إننا ننتفع به ، كما تنتفع الشمس المحجوبة بالغيوم ، فنعلم من هذا أن فيوضه وبركاته تعم الخلق حتى فى زى الغيبة» وقد سئل كيف ينتفع الناس بإمام مستور ويكون حجة الله عليهم . قال «كما ينتفع الناس بالشمس إذا سترها السحاب» . وهكذا أنطق الاثنى عشرية الإمام عليا زين العابدين بغيبة الإمام وبالانتفاع منه فى الغيبة أيضاً .

وإذا كان الإمام مصدر المعرفة ومصدر الوجود ، فلا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية .

وكان لا بد لمنطق المذهب الاثنى عشرى أن ينتهى بنسبة العصمة إلى الأئمة . وقد اختلفت أنظار المجتهدين من الشيعة فيها . فبينما يذهب البعض منهم إلى أن المعصوم من الأئمة يفعل الطاعة مع عدم قدرته على المعصية ، يرى البعض أن المعصوم قادر على فعل المعصية وإلا لم يستحق المدح على تركها ولا الثواب ولبطل الثواب والعقاب فى حقه ، فكان خارجاً عن التكليف وأن العصمة ليست مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا ملجئة إليه ، بل هى الشىء الذى يعلم الله تعالى أنه إذا فعله بعبد من عبيده لم يؤثر معه معصية له ، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله ، بل المعلوم منهم ذلك هم الصفوة الأخيار لقوله تعالى «ولقد اخترناهم على علم على العالمين» ، وقوله . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» ولاشك أن فى نسبة العصمة للأئمة مع قدرتهم واختيارهم تناقضاً . وانتهى المجتهدون إلى القول تحت تأثر معتزلى إلى أن العصمة هى أمر يوجده الله للإمام لطفاً منه ، فيهديه إلى الطاعة ، فلا يقدم على المعصية [٢] .

ولقد حاول الشيعة الاثنى عشرية تخريج قول على زين العابدين فى المعصوم بأنه «هو من اعتصم بحبل الله المتين» أى القرآن ، فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة .

---

(١) المرتضى : البحر الزخار ج ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) الشيخ المفيد : شرح عقائد الصدوق ص ٦١ س ١١٤ .

فالإمام يهدى الناس إلى القرآن والقرآن يهديهم إلى الإمام لقوله تعالى : «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم» يفسره المجلسى بأن تفسير العصمة بالاعتصام بحبل الله – إما باعتبار أن الله يعصم الأئمة من الذنوب بسبب اعتصامهم بالقرآن أو بأن المراد بأن الله عصمه بالقرآن فيعمل بما جاء به ويعرف معانيه» ولكن هل هذه العصمة – بهذا المعنى – مقصورة على الإمام ، أم أنها فى متناول كل قرآنى اعتصم بالقرآن ؟

وقد يتساءل الإنسان : فيم هذا كله ، وما الذى أثار الشيعة الاثنى عشرية للقول بعصمة الإمام ودفعهم إلى الدفاع عنها وبحثها بحثاً كلامياً وفقهياً ؟ إن الأسباب لاعتناق الاثنى عشرية لهذا الأصل أولاً : هو أن الإمام صاحب السلطة لا الأمة كما يدعى الأشاعرة ، أو بمعنى أدق بينما يعلن الأشاعرة «عصمة الأمة» مستندين على الأصل المشهور «الإجماع» متخذينه من الحديث المشهور «لا تجتمع أمتى على ضلالة» يعلن الاثنا عشرية عصمة الإمام مستندين أيضاً على أصلهم المشهور «موالاة الإمام» وأن الأرض لا تخلو من قائم بالحق وعلى الحديث الشيعى «من مات ولم يعرف إمامه ، مات ميتة جاهلية» ثانياً – نسب الاثنا عشرية للإمام «العلم الإلهى» وهو علم سرى فى كتب وجوامع – الجفر والجامعة ومصحف فاطمة . . إلخ ، وعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون . إن حامل هذا العلم الإلهى ، هذا المستودع لتراث الأئمة ، عن خاتم الأنبياء ، لابد وأن يكون معصوماً عن الخطأ والنسيان . ثالثاً – النور الإلهى نور محمد ، كيف يكون مستوراً ومستقرًّا فى إمام ويكون هذا الإمام عرضة للخطأ ؟ وهنا مدخل للغنوصية فى مصدرها الأفلوطينى المحدث . ورابعاً – الإمام مصدر الأحكام ، وله وحده مطلق التصرف فى أعناق المسلمين وكل ما يمس حلالهم وحرامهم ، وكما أنهم لم يوافقوا أهل السنة على الإجماع ، لم يوافقوا أكثر وأكثر على القياس . فحين حرموا القياس ، لجأوا إلى الحكم المباشر من الإمام . يلقيه إليهم عن نص أو عن اجتهاد ، ولابد أن يكون اجتهاده مبرأ من العيوب ، معصوماً من الخطأ .

لا إجماع إذن ولا قياس ، وإنما نص قرآنى أو حديث عن إمام من الأئمة ، أو اجتهاد أشبه بصلصلة الجرس ، ولكن الإمام غائب ، وانتهى عهد الوكلاء ، فأى أصل من الأصول يعود إليه الشيعة الاثنا عشرية ، إذا استحدثت حادثات استحدثوا أصلاً غريباً : كل ما خالف العامة فهو رشاد . وما أعجب هذا الأصل .

وأخيراً – نأتى إلى الإمام الغائب – وقد رأينا نشأة الفكرة من قبل عند السبأية الأوائل ، ثم عند الكيسانية وعند الكثيرين من الغلاة . وقد آمن بها الاثنا عشرية إيماناً كاملاً ، حتى يومنا هذا . وقد تعرضوا لأجلها لأشد أنواع الهجوم العقلى من أعدائهم معتزلة وأشاعرة . بل إن الشيعة الإمامية اختلفت

فيما بينها أشد الاختلاف . وقد نقل لنا النوبختى [١] فى فرق الشيعة عقائد أربع عشرة فرقة ، اختلفت فيما بينها أشد الاختلاف ، حول حقيقة القائم ، وأخيراً انتصرت الفرقة القائلة بإمامة محمد بن الحسن العسكرى ، على أن الشيعة الإمامية لم تسلم من اختلاف حتى بعد ظفر هذه الفرقة الأخيرة . يقول الشهرستانى : «صارت الإمامية متمسكين بالعدلية فى الأصول وبالمشبه فى الصفات ، متحيرين تائهين ، وبين الإخبارية منهم والكلامية سيف وتكفير ، وكذلك بين التفصيلية والوعيدية قتال وتضليل [٢] وما زال لهذا الاختلاف بقايا حتى الآن .

وقد ظهرت لدى الشيعة الاثنى عشرية مشكلة من أدق المشاكل وهى : متى يظهر الإمام المختفى ؟ وقد اختلفوا فى هذا . أما الذين حددوا ظهور الإمام المهدى فى زمن معين ، فقد سموا بالوقاتين وكتبوا – كتباً عدة يحاولون بها تحديد وقت ظهور الإمام الغائب ، بينما آمن الأغلبية العظمى من الشيعة الاثنى عشرية بإنكار الوقت ، ويبدو هذا من دعائها أمام مسجد الإمام الغائب فى سامرا «أشهد أنك الحق الثابت الذى لا ريب فيه ، وأن وعد الله فيك حق . لا أرتاب فيك لطول الغيبة وبعد الأمد ، اللهم طال الانتظار ، وشمت بنا الفجار ، وصعب علينا الانتظار ، اللهم أرناوجه إمامك فى حياتنا وبعد المنون ، اللهم إنى أدين لك بالرجعة بين يدى صاحب هذه البقعة . . الغوث ! الغوث ! الغوث !

ولكن لم تنته فكرة التوقيت فى محيط الشيعة الاثنى عشرية ، لقد ظهرت الشيخية ثم البابية ثم البهائية ، مؤمنة بالوقت ، منسلخة عن الشيعة الاثنى عشرية ، بل منسلخة عن الإسلام كلية ضاغنة على الإسلام أشد الضغن ، مستعدية عليه فى جميع بقاع الأرض اليهودية والنصرانية .

قد رأينا الشيعة تحاول أن تجد مصدراً للرجعة فى الإسلام وتستند فى هذا إلى أحاديث كثيرة منها ما أورده الترمذى ، وابن حجر العسقلانى ، بل إن ابن تيمية نفسه – وهو المحدث الكبير – يوافق على صحة أحاديث المهدى وخروجه فى آخر الزمان . غير أن نسق مذهب الرجعة عند الشيعة يخالف تماماً نسقها عند أهل السنة والجماعة ، وإن كانت الفكرة الشيعية عن المهدية قد أثرت بلا شك فى فكرة مهدى أهل السنة والجماعة ، ويبدو أن أهل السنة اختلفوا فى حقيقة المهدى ورجعته ، وأنكره البعض ، كما أنكره المعتزلة جميعاً .

وأخيراً . . . هل الفكرة يهودية ؟ فالمهدى يوازى المسيح ، والمسيح فكرة أنتجها العقل اليهودى وهى تعنى منقذاً ومخلصاً يظهر لإنقاذ البشر ، وما زال اليهود يتطلعون إلى ظهوره . بل إن اليهودية تؤمن بأن إيليا أيضاً رفع إلى السماء وسيعود وأثرت الفكرة اليهودية فى المسيحية أيضاً ! فالمسيحية وقد اعتقدت

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

فى ظهور المسيح ، تؤمن أيضاً بخلوده أولاً ثم ببعثه ثانياً . أم أن المهدى هو ساوسخايانت المهدى الزرادشتى مختلطاً بعناصر مسيحية ويهودية (١) ؟

هل أثرت كل هذه الأساطير اليهودية الزرادشتية فى التراث الشيعى ؟ وكان المهديون فى الإسلام محمداً ﷺ وعلى بن أبى طالب ومحمد بن الحنفية ، وزيد بن على بن الحسين ، ويحيى بن زيد ، هؤلاء من آل البيت . ثم نرى كثيراً من المصلحين ولا سيما فى العصور الحديثة قاموا يحاربون الفساد أو الاستعمار باسم المهدى مثل مهدى السودان ، ومهدى السنوسى ، ومهدى القوقاز إيليا منصور ، ومهدى الأكراد حسن بن عدى . وما زال المسلمون فى القوقاز يأملون فى عودة إيليا منصور ليخلصهم من حكم الروس ، كما أن الأكراد يأملون فى ظهور حسن بن عدى . ويبدو أن فكرة المهدى إنما تعود إلى فترة من فترات الحسرة التى تسود العالم الإسلامى حيناً إذا ما سلبت منه السلطة الدينية فيؤمل الناس فى ظهور رجل أو إمام ينافح عن الدين ويعيد مجده ولعل هذا الضمير القلق هو الذى أبدع فكرة المهدى ، أبدعها من لا شىء ، وبدون استناد على أى من النصوص ، ورأى بقايا اليهود فى العالم الإسلامى إسباغها حينئذ على أئمة الشيعة ، إضراماً للعداوات المتأججة بين المسلمين ، فدخلت فى عقائد الشيعة مؤيدة بالحجج ، ومسلحة بالبراهين وأصبحت جزءاً من العقيدة الشيعية على مر العصور .

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٩٥ .